

تفسير ابن كثير

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَحَاسًا يُغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

يقول تعالى ممتنا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة ، وهو النعاس الذي

غشيهم وهم مستلثموا السلاح في حال همهم وغمهم ، والنعاس في مثل تلك الحال دليل

على الأمان كما قال تعالى في سورة الأنفال ، في قصة بدر : (إذ يغشيكم النعاس أمانة

منه [وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على

قلوبكم ويثبت به الأقدام] ([الأنفال : 11] . وقال [الإمام] أبو محمد عبد الرحمن

بن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو نعيم ووكيع عن سفيان ، عن عاصم ،

عن أبي رزين ، عن عبد الله بن مسعود قال : النعاس في القتال من الله ، وفي الصلاة من

الشیطان .قال البخاري : قال لي خليفة : حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ،
عن أنس ، عن أبي طلحة ، رضي الله عنه ، قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ،
حتى سقط سيفي من يدي مرارا ، يسقط وأخذه ، ويسقط وأخذه .هكذا رواه في المغازي
معلقا . ورواه في كتاب التفسير مسندا عن شيبان ، عن قتادة ، عن أنس ، عن أبي طلحة
قال : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد . قال : فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه
، ويسقط وأخذه .وقد رواه الترمذي والنسائي والحاكم ، من حديث حماد بن سلمة ، عن
ثابت ، عن أنس ، عن أبي طلحة قال : رفعت رأسي يوم أحد ، وجعلت أنظر وما منهم
يومئذ أحد إلا يמיד تحت حافته من النعاس . لفظ الترمذي ، وقال : حسن صحيح .ورواه
النسائي أيضا ، عن محمد بن المثنى ، عن خالد بن الحارث ، عن أبي قتيبة ، عن ابن
أبي عدي ، كلاهما عن حميد ، عن أنس قال : قال أبو طلحة : كنت فيمن ألقى عليه
النعاس - الحديث .وهكذا روي عن الزبير وعبد الرحمن بن عوف ، رضي الله عنه .وقال
البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني أبو الحسين محمد بن يعقوب ، أخبرنا محمد
بن إسحاق الثقفي ، حدثنا محمد بن عبد الله بن المبارك المخزومي ، حدثنا يونس بن

محمد ، حدثنا شيبان ، عن قتادة ، حدثنا أنس بن مالك ، أن أبا طلحة قال : غشنا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد ، فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه ، قال : والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم ، أجبين قوم وأرعنه ، وأخذله للحق (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) كذبة ، أهل شك وريب في الله عز وجل . هكذا رواه بهذه الزيادة ، وكأنها من كلام قتادة ، رحمه الله ، وهو كما قال ، فإن الله عز وجل يقول : (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا يغشى طائفة منكم) يعني : أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق ، وهم الجازمون بأن الله سينصر رسوله وينجز له مأموله ، ولهذا قال : (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) يعني : لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) كما قال في الآية الأخرى : (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدا [وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا]) [الفتح : 12] وهكذا هؤلاء ، اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة وأن الإسلام قد باد وأهله ، هذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة ، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة . ثم أخبر تعالى عنهم

أنهم (يقولون) في تلك الحال : (هل لنا من الأمر من شيء) قال الله تعالى : (قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك) ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله : (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا) أي : يسرون هذه المقالة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال [محمد] بن إسحاق بن يسار : فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير : لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف علينا ، أرسل الله علينا النوم ، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره ، قال : فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير ، ما أسمعته إلا كالحلم ، [يقول] (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا) فحفظتها منه ، وفي ذلك أنزل الله [تعالى] (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا) لقول معتب . رواه ابن أبي حاتم . قال الله تعالى : (قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) أي : هذا قدر مقدر من الله عز وجل ، وحكم حتم لا يحاد عنه ، ولا مناص منه . وقوله : (وليبتي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم) أي يختبركم بما جرى عليكم ، وليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر أمر المؤمن والمنافق للناس في الأقوال

والأفعال ، (والله عليم بذات الصدور) أي : بما يختلج في الصدور من السرائر

والضمائر .